الأسس السيميائية للاستلزام التخاطبي تنظير واجراء

د. أنمار ابراهيم أحمد الدليمي

مدخل:

يتداخل علم العلامات السيميائيّة مع تصورات فلاسفة اللغة والتداوليين أمثال: راسل وكارناب وأوستن وكرايس وغيرهم، ويُعدُّ بيرس مؤسس علم العلامات السيميائية، وقد حملت العلامة عنده طابعاً شمولياً وديناميّاً، فقد عدّها كيانا ثلاثيا تتفاعل في داخله العناصر التركيبيّة والدلاليّة والتداوليّة في إطار حركة دائمة تسمى السميوز أو السميوزيس (semiosis) وهذا يعني أن التداولية تمثل الركن الثالث الذي تقوم عليه السيميائيات كما يحدده تصور بيرس.

ويلحظ أن بيرس يركز على الوظيفة المنطقيّة للإشارة خلافاً لـ (دي سوسير) الذي ركز على الوظيفة الاجتماعيّة، وتعد الوظيفة المنطقية جوهر الفلسفة التحليلية التي نتجت عنها التداوليات اللسانية، لا سيما وأن أفكار بيرس بدأت تتطور عندما ظهر مفهوم الفعل اللغوي في مثاله المشهور ((كيف نجعل أفكارنا واضحة) وقد اكتملت هذه الأبحاث على يد تلميذه (موريس) حيث ظهرت التداولية عنده بشكل واضح من خلال التركيز على دراسة علاقة العلامات بمستعمليها، ولم يكتف موريس بدراسة البنية اللغوية دراسة وصفية كما هو الشائع بين الدارسين تأثراً برائد البنيوية اللسانية (دي سوسير) ؛ فالتداوليّة أصبحت عنده تعنى بدراسة علاقة العلامات بمستعمليها(١) ، وذلك يعني دراسة اللغة في أثناء ممارسة إحدى وظائفها الإنجازيّة والحوارية والتواصلية وقد عدها جزءاً من السيمياء.

زيادة على ما سبق فقد حاولت الدراسات التداولية تجاوز حالة الانغلاق النصي الذي وقعت فيه النظريات السابقة من خلال التأكيد على أن كل نص إنما هو نص في سياق، وقد ربطت التداولية بين فهم النص والسياق التخاطبي الذي قيل فيه، فصار النص في المنظور التخاطبي التداولي يمثل خطابا مرتبطا بسياق الانتاج وعلاقته بالاستعمال .

آليات التواصل في السيميائيات التداولية (من نظرية اللغة إلى نظرية الفعل):

يمكن القول ان التواصل في الخطاب الطبيعي متعدد الوسائل إذ إن عملية نقل الدلالات بين طرفي الخطاب يكون من خلال وسائل عدة، لسانيّة وغير لسانية، وذلك يعني ((أن يقوم المتكلم باختيار مختلف أنواع الحوامل الشكلية الكفيلة بتحقيق التواصل، والتي من بينها: اللسان، والحركات، والإيماءات والتنغيم (...) وذلك يجعل من الكلام أحيانا مناسبة يتحقق فيها الظهور المشترك والمتزامن لعدة أنساق سيميوطيقية: إرسالية لسانية + حركات + إيماءات)(٢)، وهذا يعني أن آليات التواصل الخطابي في السيميائيات التداولية تحاول إيجاد نظرية عامة للفعل تتجاوز نظرية اللغة التي تعد جزءا من نظرية الفعل، والفعل هنا يشمل الفعل غير اللغوي أيضا الذي يعد (الاستلزام التخاطبي) مرتبطاً به، وذلك يرتبط بشكل أساس بنموذج من نماذج التداولية وهو نموذج نظرية أفعال الكلام speech acts theory (٣)، وبذلك يمكن أن نقول ان نظرية الاستلزام التخاطبي هي نظرية في إنتاج الخطاب بكل الوسائل اللغوية وغير اللغوية وهذا يعني أنها جزء من منظومة فعل مترابطة فهي نظرية تداوليّة ترتبط باللسانيات عن طريق المنهج السيميائي العلاماتي الذي يشمل أنظمة التواصل كلها (اللفظية وغير اللفظية) وكلها تشكل جزءا من نظرية عامة يمكن أن نسميها (نظرية الفعل) ويمكن توضيح ذلك من خلال الخطاطة الاتية :

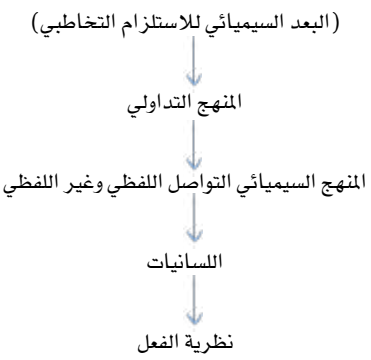

مقصديّة العلامة من السيميائيّة إلى التداولية:

شكلت العلامة بوصفها تساؤلات حول المعنى أهم مرتكزات المنهج السيميائي لا سيما وأن أهم أهداف السيميائية هو ((استكشاف المعنى)(٤)القائم على المقصديّة، كما أن العلامة في الخطاب السيميائي المعاصر تمثل بنية ذات قيمة دلالية تهدف إلى إيصال معنىً معين إذ يمثل استخدامها نوعا من الإيجاز كما أنها تميل إلى الاختصار في بنيتها التركيبية ولا سيما العلامة اللفظية. وفي الوقت نفسه فإن عملية تحليل الخطاب الطبيعي في الجانب التداولي قادت (كرايس) إلى الاهتمام بمسألة (القصديّة) التي تعد من أهم المميزات الأساسيّة للخطاب التداولي ، لذا فإن أي خرق للمقصديّة في هذا الخطاب يؤدي إلى حدوث ما يسمى بـ (الاستلزام التخاطبي)؛ فالأنين مثلاً: يعد علامة سيميائية طبيعية تدل على الألم، إلا أن دلالة هذا الاسم الذي يشير إلى فعل تخاطبي معين ترتبط بالقصد والارادة (٥)، ولكي تكون دلالة هذا الفعل صادقة وغير مضللّة؛ فإنها يجب أن تصدر بصورة غير إرادية، وهذا يعني أن الأنين قد يحدث بصورة إرادية لا يقصد منها الانين ، مما يدل على أن الشخص الذي يئن يخادع أو يتظاهر بالألم لغرض ما، وبذلك يتم خرق قاعدة (الكيف) لدى (كرايس) والتي تنص على أن يكون الإسهام في الخطاب صادقاً سواء كان فعلا أم لفظا ويمكن توضيح ذلك من خلال الخطاطة الاتية:

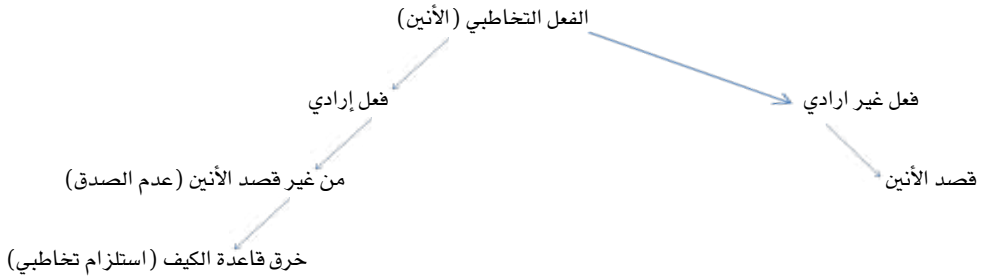

ويمكن ملاحظة ذلك في الخطاب الادبي أيضا ، ففي مجال الشعر مثلا يمكن أن نلحظ أن قول السيّاب في قصيدته أنشودة المطر(٦):

- أكاد أسمع النخيل يشرب المطر
- وأسمع القرى تئنُّ، والمهاجرين
- يصارعون بالمجاديف وبالقلوع
- عواصف الخليج، والرعود منشدين:
- مطر...
- مطر...
- مطر...

- وفي العراق جوع.

فقد جعل الشاعر القرى تئن على سبيل الاستعارة التشخيصية ، ولفظة (تئن) فعل كلامي، وهو على الرغم من مجازيته وعدم حقيقة هذا الفعل فإن الشاعر يحاول تصوير مشهد وواقع يعيشه، والذي يعنينا من ذلك كله هو هل الفعل الكلامي (يئن) الذي استعمله الشاعر هو فعل إرادي أم غير إرادي؟ والذي يظهر هنا هو أن هذا الفعل الكلامي الذي خرج على شكل صوت وقع من القرى بشكل إرادي لا يقصد منه الأنين ذاته ، وانما يقصد منه تنبيه الاخرين إلى الواقع المتردي الذي يعيشه الشاعر. وذلك يستلزم خرق قاعدة (الكيف) لدى (كرايس) التي تنص على الصدق في الخطاب سواء كان لفظا أم فعلا ، وعليه فان خرق هذه القاعدة يؤدي إلى حصول استلزام تخاطبي يقصد منه السخرية والتهكم وهو يتوافق مع ما أراد الشاعر ايصاله الى الاخرين .

وعلى مستوى تداولي اخر فقد شكلت لفظة مطر (علامة سيميائية)ذات طابع تداولي استلزامي إذ من المعلوم أن لفظة مطر في الاستعمال القرآني، والمعجم العربي إنما تدل على العذاب وهلاك الأمم، قال تعالى: ((وأمطرنا عليهم مطرا فانظر كيف كان عاقبة المجرمين) (الأعراف: ٨٤)، إلا أنّ استعمال الشاعر لهذه اللفظة قد جاء مغايراً لما هو متداول في عرف القرآن الكريم والمعجم العربي، فهي لفظة تمثل في ظاهرها علامة سيميائية تدل على الخير والعطاء، وهذه المفارقة بين لفظة (مطر) بوصفها علامة سيميائية استعملها الشاعر للدلالة على الخير والعطاء، وبين لفظة (الجوع) قد أنتج استلزاماً تخاطبيّاً يقوم على السخرية والاستهزاء من الواقع، مما يعني أن الاستلزام التخاطبي هنا قد حصل بسبب اللا تلاؤم بين لفظة (المطر)بوصفها علامة سيميائية تدل على الخير وبين لفظة (الجوع) التي تدل على الهلاك، وقد أدى ذلك إلى حصول استلزام تخاطبي خُرقت بموجبه إحدى قواعد المحادثة لدى(كرايس) وهي قاعدة الورود أو الملاءمة.

ويمكن القول هنا أن مقصدية الشاعر قد عادت إلى المعنى القرآني بدليل لفظة(الجوع) التي تؤدي إلى الهلاك، مما أدى إلى حصول تعارض بين مقصدية الشاعر وظاهر اللفظ.

الاستلزام التخاطبي وسيرورة العلامة السيميائية :

يرتبط إنتاج المعنى في نظرية (الاستلزام التخاطبي) في بعده السيميائي، بالسيرورة التدليلية التي أطلق عليها السيميائيون تسمية (السميوز أو السميوزيس)، وقد أفادت التداولية في أبعادها الحوارية من آلية عمل (السميوز) بوصفها أداة مهمة تتحكم في إنتاج المعاني والدلالات المتعددة. وقد ركز المنهج التخاطبي التداولي في بعده السيميائي على سيرورة العلامة بوصفها المكون التواصلي التام، وهذه العلامة تمثل وحدة تواصلية ذات بناء ثلاثي يتكون من (ماثول) يحيل على موضوع عبر مؤول عن طريق سلسلة لا متناهية من الإحالات التدليليّة (semiosis) (٧)

وعليه فإن عملية التخاطب التداولي في بعدها العلاماتي تستثمر (مبدأ التعاون) في إنتاج المعنى لدى (كرايس)،إذ إنّ ((عملية التدليل عبارة عن فعل أو تأثير يستلزم تعاون الأطراف الثلاثة للعلامة) (٨)فالتعاون التخاطبي في المفهوم السيميائي هو ((فعل ثلاثي يستدعي وجود ثلاثة عناصر مرتبطة فيما بينها، ماثول، وموضوع، ومؤول) (٩) ؛ فالماثول هو الحامل المادي للعلامة الذي يمثل الدال ومن دونه لا يمكن أن يتحول الشيء إلى علامة، أما الموضوع فهو العنصر الذي يقوم الماثول (الدال) بتمثيله، وهو يقتضي وجود معرفة مسبقة مشتركة بين طرفي العملية التخاطبية حتى يتم التعاون الحواري في إنتاج الدلالات والإحالة على الموضوع.

وتجدر الاشارة الى أن المعرفة هنا على نوعين: أولية تفهم من ظاهر اللفظ، وهي تحيل على المعنى السطحي للفظ، أما الثانية فهي عبارة عن حصيلة لسيرورة سيميائية سابقة(١٠)

واستنادا إلى ما سبق فإن قول القائل: (الجو جميل اليوم) تمثل منطوقا جملياً ينتج محمولات استلزاميّة متعددة. ومنفتحة على معان عدة يقتضيها السياق من مثل:

- لنخرج من المنزل للترويح عن النفس.
- لنستمر في نزهتنا هذا اليوم.

- لنعمل عملا يتطلب أن يكون الجو صحواً.
- لنسافر هذا اليوم لأن الجو يساعد على ذلك.

إلا أننا يمكن أن نلحظ هنا أن السيرورة المعنى في النظريات التخاطبية التداولية لا بد أن تتوقف عند حد معين من الدلالات والمعاني خلافا لما هي عليه عند السيميائيين، ذلك أن إنتاج المعنى في بعده التخاطبي التداولي يقوم على مبدأ مهم يقضي ((بأن يكون للتأويل حد يقف عنده، وغاية يصل إليها، وهي الفهم وإتمام التواصل بين المُرسِل والمرسَل إليه)(١١) ولعل السبب في ذلك هو أن التأويل في جانبه التداولي يرتبط بسياقات محددة تنجم عن عملية انفتاح المعنى التي يرتكز عليها (السيميوز)، الذي هو على الرغم من أنه السيرورة التأويلية التي لا تنتهي، لكنه يمكن أن يتوقف في اللحظة التي يرتبط فيها تحققه الفعلي بسياقات مقاميّة خاصة.

الاستلزام التخاطبي للعلامة السيميائية:

ينهض الخطاب التداولي ذو الطابع السيميائي، مستنداً إلى عوالم إبداعية تحرك ذهن القارئ ويبدو فيه معنى العلامة السيميائية خارجا عن موضوعه، ما لم يحط بسياق النص الكلي. حيث تتشكل الدلالة السيميائية للعلامة من خلال الانتقالة الحوارية المفاجئة، التي يتحول فيها النص ويرتقي من الحوار السردي الإخباري المجرد إلى الأداء الشعري، ومن تمظهرات هذا النوع من الخطاب، ما يظهر في قصيدة (شروق أطول من التاريخ) للشاعر باسم فرات حيث يقول:(١٢)

- بقايا فتوحات عطشى
- رايات تحرق رايات
- أسواق ينبت في أجنتها الكلام
- كثيرون باعوا صلبانهم بثمن بخس

يلحظ ان الشاعر هنا يتحدث عن بقايا الفتوحات والرايات والأسواق، ثم يقوم بانتقالة حوارية مفاجئة ينتقل معها ذهن المتلقي إلى معنى آخر فالمقول النصي:

- كثيرون باعوا صلبانهم بثمن بخس

يمثل انتقالة حوارية يقوم بها الشاعر أثناء سرده حيث يخرق فيها قاعدة الورود أو الملاءمة لدى(كرايس)، وهذه الانتقالة تحققت من خلال تشكل الاستلزام التخاطبي الذي حققته العلامة السيميائية (صلبانهم) والتي تشكلت عبر علاقة المجاز المرسل (الجزئية) التي تتمثل في بيع الدين والانسلاخ من القيم والأعراف، وقد أسهم السياق الذي يتموضع فيه الخطاب بكشف الدلالة الاستلزامية التي يقتضيها اللفظ حيث نلاحظ الدلالة المعجمية للفظة (صلبانهم) التي مثلت علامة سيميائية ترمز إلى المسيح -عليه السلام- الذي يمثل المدلول المرجعي القريب، والذي يتحول في سياق النص لدى الشاعر إلى علامة سيميائية تحيل ذهن المتلقي إلى دلالة أخرى في البنية العميقة والتي يمكن رصدها تداوليا من خلال التراكم المعرفي الذي يحدده الوعي الجمعي لدى المتلقي.

ويظهر ذلك أيضا لدى الشاعر في قصيدة (سبادي) حيث يقول:(١٣)

- عجائز أحدثهم عن حروب آبائي
- فيصبون الشاي مثنى وثلاث

فالشاعر الذي يمثل هنا الراوي السارد يحدث العجائز عن حروب آبائه، وكأنه يسألهم عن هذه الحروب، وقد جاء الجواب:

- فيصبون الشاي مثنى وثلاث

إن لفظة (يصبون الشاي) فعل كلامي، وقد خرق الشاعر من خلاله قاعدة الملاءمة أو الورود أو المناسبة لدى (كرايس)، إذ كان من المناسب أن يشرع الشاعر بسرد ماهية هذه الحروب، وما حدث فيها، إلا أنه اكتفى بقوله: فيصبون الشاي مثنى وثلاث.

وقد مثلت لفظة (مثنى وثلاث) علامتين سيميائيتين أحالتا معنى النص إلى دلالات متعددة يمكن أن تحيل المعنى إلى كبر سن من يتحدث معهم عن حروب آبائه؛ لأنهم قد يكونون ممن أدرك تلك الحروب، كما أن الاستمرار في شرب الشاي مثنى وثلاث يمثل علامة

سيميائية يمكن أن تشير إلى طول تلك الأحاديث التي يستمعون إليها استنادا إلى العرف السائد.

الخاتمة

وأخيرا ..... فقد توصل البحث الى أن آليات عمل علم العلامات السيميائي مثلت اساسا للتداوليات الحديثة التي يعد الاستلزام التخاطبي جزءا أساسيا فيها، لاسيما في البعد الاستعمالي للعلامة التواصلية ، كما توصل البحث الى أن نظرية الاستلزام التخاطبي في بعدها السيميائي تمثل نظرية في انتاج المعنى بكل الوسائل اللغوية وغير اللغوية .، مما يعني أنها تمثل جزءا من منظومة فعل مترابطة فهي نظرية تداولية في في أصلها ترتبط باللسانيات عن طريق المنهج السيميائي العلاماتي، كما توصل البحث الى أن العلامة في معناها السيميائي والتداولي قد شكلت ركيزة مهمة في تكوين المعنى القائم على القصدية لاسيما وأن عملية تحليل المعنى الطبيعي قد قادت (كرايس) الى الاهتمام بالقصدية التي تعد من أهم المميزات الاساسية للخطاب التداولي. كما توصل البحث الى أن التداولية في ابعادها الحوارية قد أفادت من الية عمل (السميوز) بوصفها أداة مهمة تتحكم في انتاج المعنى فهي تستثمر مبدأ التعاون في انتاج المعنى لدى (كرايس) لان عملية التدليل عبارة عن فعل أو تأثير يستلزم تعاون الاطراف الثلاثة للعلامة، كما لاحظ البحث أن سيرورة المعنى في النظرية التداولية لابد أن تتوقف عند حد معين من الدلالات والمعاني ذلك لان انتاج المعنى في البعد التداولي التخاطبي يقوم على مبدأ مهم يقضي بأن يكون للمعنى حد يتوقف عنده لان التأويل في الجانب التداولي يرتبط بسياقات مقامية تحدد المعنى المراد من النص وقد عمل البحث على تطبيق هذه التنظيرات على نصوص أدبية منتقاة حاول البحث وضع اليد على عينات منها. والله الموفق .

الإحالات:

١) ينظر: المقاربة التداولية: ١٦.

٢) طرق التضمين الدلالي والتداولي في اللغة العربية وآليات الاستدلال: (أطروحة دكتوراه): ٤٠.

٣) ينظر: الاستلزام الحواري في التداول اللساني: ١٠.

٤) مدخل إلى السيميائية السردية والخطابية: ٥٥.

٥) ينظر: نظرية المعنى في فلسفة بول جرايس: ٤١.

٦) الأعمال الشعرية الكاملة، بدر شاكر السياب: ١/ ٣٢٠.

٧) ينظر: الأسس السيميائية لعلم البيان العربي، أيقونية الصور المجازية (بحث) د. محمد فكري الجزار، مجلة علوم إنسانية، العدد ٣٥، خريف ٢٠٠٧/، ٤١ – ٣٣.

٨) الاتجاه السيميائي في نقد الشعر العربي: ٣٥.

٩) السيميائيات مفاهيمها وتطبيقاتها: ٦٩.

١٠) ينظر: المصدر نفسه: ٩٩ – ١٠٠ .

١١) ينظر: الخطاب اللساني العربي، هندسة التواصل الإضماري من التجريد إلى التوليد: ٢/ ٣٨٨ .

١٢) ينظر: ديوان بلوغ النهر: باسم فرات: ٢٥.

١٣) ينظر : المصدر نفسه: ٢٩.

المصادر والمراجع:

القرآن الكريم.

- الاتجاه السيميائي في نقد الشعر العربي ، غريب اسكندر ، دار الشؤون الثقافية العامة ، بغداد ،ط١ ، ٢٠٠٩م.
- الاستلزام الحواري في التداول اللساني ، من الوعي بالخصوصيات النوعية للظاهرة الى وضع القوانين الضابطة لها . العياشي أدراوي ، منشورات الاختلاف ، الجزائر ،ط١ ، ٢٠١٢م.
- الأسس السيميائية لعلم البيان العربي، أيقونية الصور المجازية: د. محمد فكري الجزار، مجلة علوم إنسانية، العدد ٣٥، خريف ٢٠٠٧م.
- الاعمال الشعرية الكاملة ، بدر شاكر السياب ، دار الحياة للنشر والتوزيع ، القاهرة، ٢٠١١م.
- الخطاب اللساني العربي هندسة التواصل الاضماري ، من التجريد الى التوليد ، د. بنعيسى أزاييط ، دار عالم الكتب الحديثة ، أربد ، الاردن ، ط١ ، ٢٠١٠م.
- السيميائيات مفاهيمها وتطبيقاتها ، سعيد بنكراد ، دار الحوار ، سورية ، اللاذقية ، ط٢، ٢٠٠٥م.
- ديوان بلوغ النهر ، باسم فرات ،دار الحضارة للنشر ، القاهرة ،٢٠١٢م .
- طرق التضمين الدلالي والتداولي في اللغة العربية وآليات الاستدلال، (أطروحة دكتوراه)، ادريس سرحان ، جامعة سيدي محمد بن عبد الله ظهر مهراز ، فاس – المغرب ، ١٩٩٩– ٢٠٠٠م
- مدخل إلى السيمائية السردية والخطابية، جوزيف كورتيس، ترجمة: د. جمال حضري، الدار العربية للعلوم ناشرون، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط ١ ، ٢٠٠٧ م.
- المقاربة التداولية ، فرانسوا أرمينكو ،تحقيق : د. سعيد علوش ، دار الانماء القومي ، الرباط ، ١٩٨٦م.
- نظرية المعنى في فلسفة بول جرايس، د. صلاح اسماعيل، الدار السعودية المصرية ، ط١ ، ٢٠٠٥م.